المقتطف

الجزء الحادي عشر من السنة الرابعة عشرة

١ آب (اوغسطس) سنة ١٨٩٠ الموافق ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٠٧

جلالة السلطان عبد الحميد خان

بقلم الاستاذ اللغوي فيبري الرحالة المجري

(ادرجنا هذه المقالة اولاً في المقطم جريدتنا اليومية السياسية ثم رأينا ان نوشي صفحات المقتطف بها حرصاً عليها وتميماً لانتشارها)

لقد مضى على تمدننا نحن الاوربيين نيف ومئة سنة ودعائنا تطرق ابواب المسلمين في اسيا ثم نعود دون ان تأتي بنتيجة تذكر او تأتي بنتيجة لا تعتبر في جنب ما يُبذَل عليها واسباب هذا الاخفاق عديدة ولطالما نظر الباحثون فيها غير انهم لم يفطنوا الى السبب الذي هو اول الاسباب واعظمها اعني به علاقة الرعايا المسلمين بملوكهم في آسيا. فانها علاقة خصوصيّة اذ الرأي العام المطلق الحريّة لا يوجد في اسيا بل الناس طوع اوامر ملوكهم وامرائهم يصدعون بامرهم غير مترددين ولا يقبلون اصطلاحاً جديداً ولا اصلاحاً نافعاً مفيداً الاّ اذا تمّ على ايدي ملوكهم وامرائهم حتى لقد اصبح من الامثال السائرة عدم ان الناس على دين ملوكهم فانظر الى الملك تعرف رعيته. وعليه تجد ان كل ما اثّرهُ تمدننا الغربي في احوال مسلمي اسيا انما اتصل تأثيرهُ اولاً الى سلاطينهم وملوكهم وامرائهم ثم سرى منهم اليهم

ويعد في مقدمة اولئك السلاطين جلالة السلطان عبد الحميد خان اذ السلطنة العثمانيّة سابقة لسائر ممالك الاسلام في مضمار التمدن الحديث والفضل في ذلك لجلالة سلطانها وعظيم اهتمامهِ. ولقد كنت منذ ثلاثين سنة نازلاً في بيت المرحوم رفعت باشا بالاستانة فاتاني طالب من لدن جلالة المرحوم السلطان عبد المجيد خان لأعلّم كريمته

مبادئ اللغة الفرنسوية فامتثلت ودخلت منزلاً في المابين مجاوراً لدار حرم السلطان حيث جلست ادرس تلميذتي مبادئ الفرنسوية مترجماً لها بعض الجمل التركية لتفهمها اياها فتعيدها من وراء الستار على مسمعي دون ان تراني او اراها

وبينما انا ادرسها على هذا المنوال الغريب الذي لا مثيل له عندنا تعرفت باخيها الذي الى بيتها زائراً وجعل يحضر الدروس معها وهو يومئذٍ يدعى بحميد افندي ولم يكن يتجاوز السنة السادسة عشرة من عمره واخصّ ما حوّل انتباهي اليه اشراق الذكاء من عينيه ووجهه الشرقي الصورة والملامح فذلك مع تأدبه واحتشامه ابقى له رسماً لا يمحى عن لوح ذكري على اني لم اكد اكلمه اذ مخاطبة الملوك والامراء تُعدّ عند الشرقيين من قلة الادب وعدم الاحترام. ثم باينت الشرق وقضيت ثلاثين سنة بعيداً عن اهله وما عدت الى الاستانة الاّ وقد غيرتني صروف الزمان كما غيّرت سلطنة آل عثمان حتّى اذا استدعاني جلالة سلطان الامة العثمانية المشهورة بالبأس وثبات الجنان واحب ان يعرف الاوربي الذي قضى العمر في درس لغة الاتراك وتاريخهم وعوائدهم واخلاقهم وآدابهم لم اعجب انهُ نسيني مع فطانته وزكانته وما ذكر الاّ بعد التذكر اني انا هو "الطبّل خوجه" اي الاستاذ الاعرج كما كانوا يلقبونني وانا عندهم. فاقمت في حضرته برهة تفكهنا فيها باطايب الحديث ولما كنت قد تتبعتُ اخبارهُ واستقصيت آثارهُ منذ نعومة اظفاره الى اليوم وترددت عليه واطلت الحديث معهُ فقد خبرت اخلاقهُ وعرفت اوصاف ارفع سلاطين المسلمين شأناً وانفذهم قولاً واعظمهم فعلاً — سلطان قد قدّر لهُ ان يقضي في مستقبل الايام اموراً من اهمّ وادقّ ما يخلّد ذكرهُ في تواريخ هذه الازمان. ولكن لسوء الحظ يخطئ الناس عموماً واهل السياسة خصوصاً مقاصدهُ ونياتهِ وغرضهُ من افعالهِ

وبلغ السلطان عبد الحميد خان السنة الثامنة والاربعين من عمره وجمع في اخلاقهِ اشهر اخلاق ابيهِ وجدهِ فورث عن جدهِ السلطان محمود الغيرة والسعي والهمة وعن ابيهِ السلطان عبد المجيد دماثة الاخلاق ورقة القلب ولا ابالغ اذا قلت انهُ لم يقم في تاريخ المشرق سلطان شرقي امتاز بحب الشغل والهمة التي لا تكلّ ولا تملّ كالسلطان عبد الحميد فانهُ يقضي يومهُ من الصبح باكراً الى ان يتناهى المساء مهتمّاً بقضاء اشغال الدولة ومهام السلطنة ناظراً في كل قضيّة مهمّة وغير مهمّة مستوعباً كل تفاصيلها حتى يكاد يضني صحتهُ ويعاوق سير الحكومة. وقد دخلت عليهِ يوماً فوجدتهُ جالساً على ديوانهِ وعن يمينهِ عدد عديد من الجرائد التركية وترجمات من الجرائد الاجنبية متراكمة بجانبهِ

كوماً عالياً وعن يساره ما يضاهيها من اوراق الحكومة المعروضة على جلالته لمراجعتها والتوقيع عليها. وكان وهو يحدثني ينظر من طرف خفي يمنة ويسرة طوعاً لما يتردد في نفسه من حب الرجوع الى مطالعته ورغبة في الخلاص من المقالة فتحققت حينئذٍ صحة ما قاله لي دولتلو ثريا باشا كاتم اسراره ان جلالته لم يوقع قط على ورقة الا بعد مطالعتها واستيعاب ما فيها

ولا يخفى ان الدولة التي يجهد سلطانها نفسه كل هذا الجهد في قضاء مهامها يضيق نطاق سلطة وزرائها. ولما كنت من الاوربيين القلائل الذين حازوا ثقة السلطان واركانه اليهم فقد سألني كثيرون عما اذا كان اختبار السلطان وعلمه مساويين لهمته وعظيم جهده وسعيه وعما اذا كان لا يقدّر مزاياه اعظم من قدرها ويعدها فوق ما هي فاجبتهم عن صدق واخلاص ان العلم الذي تعلمه السلطان عبد الحميد كان يسيراً وقاصراً جداً كما هو علم سائر ملوك المشرق ولكنه عوّض عما ينقصه من ذلك بارادته التي تلين الحديد وبمرّ الادراك وقوة الحكم فيه وشدة الذكاء والنجابة التي يندر مثالها في غيره فاصبح خبيراً عارفاً باحوال سلطنته وعلاقاتها ودخائلها ومشاكلها مطلعاً حق الاطلاع على السياسة الاوربية ولا ابالغ اذا قلت ان اعتداله وحكمه على نفسه واميالها اللذان حفظا اوربا من الحرب العامة وبلاياها الطامة. يشهد بذلك انه لما تكدّر صفاء البلغار طلبت اليه روسيا ودول اواسط اوربا ان يؤيد حقوقه في الروملي الشرقية قوة واقتداراً فاجابهم ان السلم خير القضاة واولى بالاتباع واختار الصبر على الاعتداء على ان يسفك دماء العباد ويجرّ الهلاك على البلاد

اما اوصافه الذاتية فقد النيت فيه فوق ما سمعت من اللطف والرقة وصيانة الاخلاق فهو يغلب اعداءه المجاهرين بالعداوة ويحلّ عزائمهم بلطفه وكرم اخلاقه ويقابل الذين اخلصوا له واقاموا على ولائه زماناً طويلاً بالشكر والامتنان ويلاطف السيدات الاوربيات اللواتي يزرن بلاطه بغاية الانس والاحتشام كمن عاش طول دهره في بلادهن وعرف عوائد قومهن. وكنت لا اجلس مقابله مرّة اثناء مقابلاتي له على انفراد الا اتأثر من عظيم دعته وانضاعه ورقة طباعه والانعطاف والانكسار الذي يبدو عليه عند تحريك مقلتيه. وهو يجتنب الحديث عن نفسه من حيث هو حاكم وسلطان واذا اضطرّ الى ذكر ابتداء حكمه اشار اليه دائماً بقوله لما اتيت الى هذا المكان — ولم يقل لما صرت سلطاناً او نحو ذلك ولا يهمنا ما اذا كان هذا ناتجاً عن طبع فيه او كان مراعاةً لما يعلمه من ان الناس اصبحت تنتقد التبجيل والتفخيم في بلاد المشرق كالمغرب وان السلاطين

والملوك بانما اميل الى التساوي برعاياهم منهم الى الترفع عنهم. وانما الذي يهمنا ذكرهُ انهُ يبذل جهدهُ في التخلص من اثقال الابهة والفخفخة في بلاطهِ ويحب مباسطة زوارهِ بالبساطة الخالية من التكلف والمؤانسة الخالصة من شوائب الكبر والخيلاء

ومن جملة الدلائل على حبهِ للبساطة انهُ يضوق مركبتهُ بنفسهِ في الاستعراضات الرسميَّة ويلبس الملابس الساذجة وقد ابطل الربذة التي كان اسلافهُ السلاطين يلبسونها على طرابيشهم علامة السلطنة ولا يبدخ في مطعمهِ كما لا يسرف في ملبسهِ الاَّ في الولائم السلطانيَّة على انها لا تزيد بدخًا عن ولائم احد من ملوك اوربَّا ويكون كل ماعون المائدة حينئذٍ من اثمن ما وجد فالصحاف من الذهب الخالص او الفضة الخالصة منقوشة ابدع نقش ومتقنة اعظم اتقان وادوات الزينة من قرائد الجواهر الكريمة الفائقة في دقة الصنعة وحسن التركيب ولا يترك جلالتهُ واسطة للملاطنة ضيوفهِ ويسلمهم الاَّ اجراها فاذا كانوا من الاوربيين جلس بين سيدتين على جاري عادتهم ولاطفها غاية الملاطنة وخصَّ المدعوين بالالتفات فقد قدموا لي على مائدتهِ يومًا صحفة من كبوش النش (الفريز) مرتبة في خطوط وصفوف بحسب الوان الكبش منها وعلى وجهِ الصحن رقعة قد كتب عليها " هذا من الاثمار التي ربَّاها جلالتهُ بيدهِ ". وقدموا لي مرَّة تفاحةً وخوخةً من اشهى ما رأتهُ عيني واحنى جلالة السلطان رأسهُ اشارةً الى تكرُّم جلالتهِ بها خصوصًا ولما دعيت آخر ليلة على مائدتهِ شجاني سماع الالحان المجريَّة تصدح بها الموسيقى السلطانيَّة في قاعة مجاورةٍ فالتفت نحوها واذا خادم واقف بجانبي فحيَّاني وقال لي ان جلالة مولاي السلطان ارسلني لابلغك ان الموسيقى السلطانيَّة تعلمت اللحن المجري الوطني بامر خصوصي لتسمعك اياهُ هذه الليلة

فرغنا من الكلام عن اوصاف جلالة السلطان الذاتيَّة فنورد ما تيسر عن اوصافهِ العموميَّة بالنظر الى كونهِ سلطان الامة العثمانيَّة فقد النيتهُ من هذا القبيل مستغنًى عن سائر اقرانهِ من سلاطين المشرق وسابقًا من اوجه شتى لبعض من ملوكنا ملوك المغرب فانهُ يندر وجود سلطان يقضي مع وزير مالية الساعات الطوال وهو مكبٌّ على مراجعة حسابات السلطنة وتنقيح دفاترها وامعان النظر في تفاصيلها واجهاد القريحة في استنباط التدبير والاحتياط اللازم للاقتصاد والتوفير كما يفعل السلطان عبد الحميد خان حتى لقد قال لي بعض الوزراء اننا ضيعنا كلالاً وملالاً واما مولانا السلطان فلا يكلُّ ولا يملُّ ولا يسمع رجاءنا فيمتنع عن الاشغال الاَّ مراعاةً لنا وطلبًا لراحتنا لا لراحتهِ. ويتردَّد بينهُ وبين

كاتم اسراره دولتلو ثريا باشا من خمسة سعاة الى عشرة على الدوام يتقلون اليه كل الاوراق التي تعرض عليه من محرّرات خصوصيّة وعرائض وكتابات دوليّة ورسميّة وما شاكل. وقد انعم الله عليه بذاكرة يندر مثالها فلا تكاد حادثة من الحوادث تغيب عن حافظته بل يذكر ما مرّ به منذ عشرات الاعوام كما يذكر غيره ما مرّ به منذ عشرات الايام ويحفظ في ذهنه ما لم يبقَ منه أثر في ذهن وزرائه. فقد مضى عليه احدى وعشرون سنة منذ زار اوربا ومع ذلك فلا يزال يذكر شوارع مدنها ومبانيها العموميّة والخصوصيّة وملابس رجالها الذين اجتمع بهم وملامحهم وهيئاتهم كأنه لم يفارقهم الاّ منذ عهد قريب

وجودة الذكر من المواهب التي امتاز بها أولو الفرائح والذكاء من اهل اسيا ولم يخصّ بها السلطان عبد الحميد وحده ولكنه قد خصّ وامتاز عن اقرانه من ملوك المشرق بآرائه في الدين والسياسة والتعليم والتربية والتهذيب. امّا في الدين فانه من المتمسكين بعقائد مذهبه المحافظين على شعائر دياناته المعتصمين بالبر والتقوى ولذلك تراه محفوفًا باكابر الائمة والعلماء والصلاّح ويجري عليهم النعم والخيرات بلا حساب. ولكنه لا ينسى رجال الدين في الطوائف الاخرى من سلطنته بل يغمرهم الهدايا والعطايا وخصوصًا بطريرك الروم الارثوذكس وبطريرك الارمن

ومن الغرائب المضحكة ان جماعة من رجال السياسة الاوربيين يتهمونه بالتعصب في الدين ومعاداة المسيحيين من قومه وغير قومه. والحال انه اتخذ كبير اطبائه الخصوصيين ورئيسهم من المسيحيين وجعل وزير ماليته دولتلو اغوبيان باشا المسيحي الارمني وعهد بكثير من مهام سلطنته الى غير المسلمين من رعيته. وهو اول سلطان بين سلاطين آل عثمان خرق الحواجز الدينية ودعا رعاياه المسيحيين عدا ملوك اوربا وسفرائها وكبرائها ووجهائها الى ضيافته والجلوس معه على مائدته. وهو اول سلطان عثماني احيا فنّي التصوير والنقش وحث رعاياه على اتقانها وقد زرته يومًا فرأيته يعجب بصورتين قد علقتا على حائط قاعته ويتباهى بانهما من تصوير تلميذين من المسلمين الذين تعلموا في مدرسة الصنائع والفنون باستمبول وهما صورة المكان الذي اسست فيه السلطنة العثمانيّة ببر الاناضول وصورة مدفن المرحوم السلطان عثمان اول سلاطين الدولة. ومن الشواهد ايضًا على حريّة افكار السلطان عبد الحميد خان انشاؤه معرضًا قد جمعت فيه التماثيل المذكورة في خرافات اليونان وذلك من الخوارق التي لم يسبق اليها في تركيا حتى الآن واما الذي يروق ذكره ويعجب كلّ من زار البلاد العثمانيّة فهو ما فعلهُ سلطانها الحالي لتعليم شعبه وتنوير اذهانهم وتثقيف عقولهم وقد

استوفيت الكلام على ذلك في خطبة خطبتها بمدينة لندن فلا اعيدهُ الآن وانما اقول عن ثقةٍ وروية انهُ اذا استمرَّ الاتراك سائرون في المنهج الذي نهجهُ لهم سلطانهم واذا لم تعرقلهم مشاكل السياسة ومخاطرها بلغوا مبلغًا يذكر فيشكر بعد زمان وجيز وتوطد اساس ارتقائهم العقلي والاقتصادي ووجودهم السياسي في مستقبل الايام . وقال لي جلالة السلطان يومًا "ولهذا تراني قد جعلت السلم غرضي قاصى اليهِ جهدي اذ السلم هو الدواء الذي يشفي ما اصابنا في الماضي من قروح التقصير وادواء الاهمال وسوء التدبير . ولا يدخل روح النظام والامن في البلاد الاَّ ضبَّاط ملكيون قد تعلموا وتخرَّجوا في مدرسة الاختبار للحياة الاجتماعيَّة والسياسية طبقًا لاحوال هذا الزمان"

ولذلك تجد المئات والالوف من احداث الاتراك يفرغون الجهد في تحصيل مبادىء العلوم واللغات الاوربيَّة وقد دبَّ روح جديد في الامة التركيَّة كلها فتغيرت لغتها وعلومها وآدابها تغيرًا جوهريًّا وها انا اكتب مقالتي هذه وامامي العدد العديد من المؤلفات التركيَّة الجديدة في الاقتصاد الاجتماعي والتاريخ وعلم الهيئة والجغرافيا ونحوها وقد أُرسلت كلها اليَّ لكي انتقدها وابدي حكمي فيها واشهد الآن ان بعضها في غاية التدقيق والاتقان . على اني لا اقصد بذلك ان الامة قد استوفت المراد اذ لا يزال يعوزها الشيء الكثير من التعليم والتهذيب فان السواد الاعظم منها أُميون او سذَّج مهملون ولكن التقدم في التعليم وتعميم المعارف يكون تدريجًا والطفرة فيهِ محال . وانما ذكرت ما ذكرت انصافًا لجلالة السلطان عبد الحميد في مساعيهِ الغراء واعترافًا بمناصحهِ الحسناء في اصلاح سلطنتهِ وتثقيف عقول رعيتهِ

ثم ان اشدَّ الانتقاد الذي انتقد بهِ الناس عليهِ هو في امرين الاول سياسة الحيادة التي اتبعها والابتعاد عن محالفة كل دولة من الدول الاوربيَّة والثاني استعمالهُ الوسائل التي لا تخلو من الصرامة في الحكم على بلادهِ . اما الاول فيجب قبل انتقادهِ ان نتدبر عواقب المحالفات الماضية والاخطار التي تنتج عن المحالفات المستقبلة فقد ظهر من الحوادث التاريخيَّة الحديثة انهُ اصاب الباب العالي من يدَّعون صداقتهُ ويبدون منفعتهُ ما لم يصبهُ من اعتداء الدِّ اعدائهِ واقدمهم . وقد افضت هذه العواقب الموجبة للاسف الى اثارة الشبهات طبعًا واتخاذ مزيد التحرس والحذر عنلاً فلا عجب اذا حاذر ارباب السياسة العثمانيَّة كل محالفة غير مضمونة العواقب واستحاروا العزلة والانفراد في الدفاع عن مصالح سلطنتهم بحسب ما تدلهم عليهِ عقولهم وطبقًا لاختيارهم وما علموهُ باختبارهم

وامَّا الثاني وهو استعمال الصرامة والتشديد في الحكم على الرعيَّة وبث الجواسيس في كل

انحاء السلطنة كشبكة نشرت على وجه الماء فلا يفلت حيٌّ من خروجها فاستصبح الفارق ان ينتبه قبل الانتقاد الى ان تركيا بلاد شرقيّة قد تألف اهلها من مذاهب وشعوب شتى . وكلهم خصوم متباغضون وناقمون بعضهم على بعض متهيئون للبطش والفتك بعضهم ببعض متى احسوا ان قبضة الحكومة ارتخت عن اعناقهم اقل ارتخاء فهم في الحقيقة اقوام شرقيّة يسهل إهاجتها وإثارة روح التعصب الديني في صدورها ولا تقابل بالشعوب الغربيّة التي ربيت في مهاد الحريّة ونشأت في نور العلم فاعتادت التوسع والتساهل في معاملة بعضها لبعض . فلا يصح في شرع عاقل ان يكون الحكم على هذه الشعوب بموجب الدستور الحرّ المطلق ولا يحسن ذلك الا الذين يعدون الاحلام حقائق والاماني وقائع ويجهلون الحالة الحقيقيّة وشهادتها القطعيّة . وعليه فلا يمكن ان الدستور الحرّ يرأب صدوع الرعيّة ويسد ما ثغرة احتادهم الدينيّة على توالي الايام والازمان ووسّعة عنو الغالب وظلمة وعنّة ذل المغلوب وضيمه . فاجراء الاحكام عليهم بحسب الدستور الاوربي يعتبر محالاً في اوربا نفسها

واما ما يتهم به السلطان عبد الحميد من الاستبداد فلا أرى عليه جواباً اسدّ من كلامه حيث قال لي يوماً "ان اوربا قد عزقت ارضها ومهدت تربتها اعواماً وعصوراً حتى جاءت بما تراهُ فيها من مصادر الحريّة والمنشئات الحرّة والآن يطلبون اليّ ان اقتلع فسيلة من مابت الحريّة فيها واغرسها في اراضي اسيًّا الوعرة البائرة الباطلة . دعوني اتعهد هذه الاراضي قبلاً بما يحسنها فاقتلع اشواكها وارفع احجارها واقلع تربتها واخد الاخاديد واحفر الاقنية لاروائها لان امطار اسيًّا قليلة نادرة ثم انقل تلك الفسيلة اليها واكون اول من يطيب نفساً ويقرّ عيناً بنمائها ونضارتها وغضاضتها" انتهى

واما نظام البوليس الذي انهال الذم عليه سيلاً وما يقال عن اجواق العيون والارصاد التي بثها السلطان بين رعيته وانفق عليها الاموال الطائلة تأميناً على حياته وتسكيناً لشبهاته فالحق يقال ان هذه الاجواق لا توجد الاّ في مخيلة سكان بيرا وغلطه وفي ادمغة النهلست الذين لا يخو البسفور منهم فان بيرا وغلطه قد جمعتا كلّ اوربي طوّح به دهرهُ وضاق بالفاقة صدرهُ فيصدقون اكذب الاشاعات واغربها وينشرونها في اوربا طولاً وعرضاً ولولا امثال هذا الاختلاق والاستباط لم يهنأ لهم عيش فان لم يكن لهم منهُ نفع استنبطوهُ لمنفعة رفاقهم من مكاتبي الجرائد او للتمويه على وكلاء الدول ورجال السياسة الذين يسهلون تصديق الاختلاق والتلفيق . فقد اخبرني بعض اهل بيرا ان للسلطان الفاً ومئتي جاسوس واخبرني آخرون ان له الفاً وستمئة جاسوس ينتدم الاموال

الكثيرة كل شهر وانهم مبثوثون بين اهالي الاستانة كلهم من وطنيين واجانب كبار وصغار في الازقة والشوارع والجوامع والكنائس والبساتين والحدائق بل في مخادع النوم وغرف البيوت . فلما سمعت هذا الكلام بحثت طويلاً واستقصيت كثيرًا ثم رجعت وقد ايقنت ان كل ما سمعته اختلاق او مبالغة وغلو . واصل تلك الاقوال كلها ان رجالاً من اهل البلاط يستخدمون الجواسيس سرًّا ويضعون العيون خفية لاجراء دسائسهم ومكائدهم الشريرة وتنفيذ مآربهم الفاسدة وجلالة السلطان عالم بكرهم ودهائهم وساهرٌ على دفع شرّهم عن العباد ولكن كشف حيلهم واظهار دسائسهم ومكايدهم ليس بالامر السهل عليه كما يتوهم الاوربيون في بلادهم لعدم معرفتهم حقيقة الاحوال

ولو شئت ان استوفي الكلام على نقض كل الاكاذيب الشائعة في اوربّا عن ذات الحضرة السلطانيّة او عن حكمها على الامة العثمانيّة لطال المقال واعترى القارئ الملال . هذا وانا عالم اني استهدفت في هذه المقالة لسهام الذين يتهمونني بالتملق وتمويه الامور وتزويقها ولكن سبب الفرق بيني وبين الذين يخالفونني في الرأي ظاهر وهو تفاوت الفريقين في وسائط معرفة الاتراك والوقوف على حقيقة احوالهم . نعم ان تركيا لا تبعد عن اوربّا الاّ مسافة بضعة ايام على سكة الحديد ولكن الاتراك لا يزالون بعيدين منا ومنفصلين عنا كما كانوا في سالف العصور . فاذا اردنا ممازجتهم ومعرفة حقيقة حالهم وجب ان نتدرّع بدرس لغتهم وتاريخهم وان نطّرح عنا ما رسخ في اذهاننا من الاوهام والخرافات عنهم وانا الكفيل حينئذٍ بان حكم الاكثرين من السيّاح الاوربيين الذين يزورونهم ويعاشرونهم يكون مطابقًا لحكمي عليهم ويعلمون اذ ذاك ان السلطان الذي انار الله عقله بمواديه ونعمه واوقد فؤادهُ بحب وطنه يستطيع ان يعجل سير التمدن في سلطنته ولكنه لا يستطيع ان يصنع المعجزات فيحول الهيئة الاجتماعيّة الاسيويّة دفعةً واحدةً الى هيئة اجتماعيّة اوربيّة . ولا يجهل قومنا اننا لم نخرج فجأة من ظلال الجهل وظلمات التوحش في الاعصر الخالية الى انوار العلم وربوع التمدن الذي نحن فيه وكذلك لا ينتظر ان اهالي اسيّا يشبّون في بضع عشر من السنين ما قضينا عليه العصور العديدة والازمان الطوال فلنفتح العيون ولننظر الى حالة تركيّا التي يرثى لها ولا نتعامَ عن قراها الخربة وطرقها المهملة واراضيها المقفرة ومدنها البالية ومبانيها المسدودة واهاليها الذين اضناهم الفقر بل يجب علينا التساهل والتسامح واطّراح كل وَهْم وتعديل كل ميل سياسيّ قبل الحكم على سلاطين المشرق ورعاياهم . انتهى